الجغرافيا السياسية والجيوبولتيكا

تأملات وارهاصات

إعداد

أ.د / حسام جاد الرب

أستاذ ورئيس قسم الجغرافيا

كلية الآداب- جامعة أسيوط

تحكي قصة تطور المجتمعات البشرية في حرفتها من الجمع والالتقاط إلى الصيد ثم الرعي فالزراعة وأخيراً الصناعة إنما تحكي قصه تطورها في تكوينها من عشيرة إلى قبيلة إلى أمة ثم تتكون الدول بمعناها السياسي كوحدة سياسية لها حدودها الموضوعة، وتضم شعباً له حكومة تدير شئونه.

وقد جاء ميلاد الجغرافيا السياسية في أواخر القرن التاسع عشر، ولكن كان لمولدها أرهاصات منذ القرون القديمة والوسطى. فنجد المؤرخ اليوناني القديم هيرودوت يذكر أن "سياسة الدولة تعتمد على جغرافيتها"

وأعتبر أن حياة المصريين رهينة مياه النيل فقال عبارته الشهيرة "مصر هبة النيل" في معرض دراسته لتأثير الجغرافيا في حياة الدول، وهو الذي أشار إلى أن ملك الفرس " كورش " رفض قيادة شعبة للسيطرة على مزيد من الأراضي الحقيقة خوفاً من تأثير لين المناخ في نفوس رجاله ودفعهم نحو الضعف والتراجع.

وكتب أرسطو الفيلسوف والمفكر السياسي اليوناني عن علاقة السياسة بالجغرافيا، وتناول في مؤلفه "السياسة" العلاقة بين المناخ والحرية. كما اعتبر الجغرافي اليوناني استرابو (62 ق.م – 21 م) أن عادات الناس والأقسام السياسية للدولة تتحدد بظروف طبيعية.

كما نجد أن استرابو وهو عالم يوناني أيضاً ذكر في كتابه "الجغرافيا" والذي يتناول الإمبراطورية الرومانية أن الدولة إذا كانت كبيرة فأنها تكون في حاجة إلى حكومة مركزية قوية يتولى السلطة فيها حاكم فرد حتى يتسنى لهذه الحكومة أداء وظيفتها على الوجه الأكمل"

كما ربط مونتسكيو Montesquieu بين الظروف المناخية وبين القدرة على التنظيم أو القدرة على العدوان أو بينها وبين التشريعات التي تخضع لها الجماعات البشرية.

وشرح العالم العربي الكبير "عبد الرحمن بن خلدون" في كتابه المعروف "مقدمة أبن خلدون" التفاعل بين الجغرافيا والسياسة متحدثاً عن ميل سكان وسط أفريقيا إلى الدعة والمرح نتيجة ظروف المناخ السائدة هناك. وسبق كثيراً من العلماء في حديثه عن أهمية العامل الجغرافي للعاصمة – أو مركز الدولة – متوقفاً عند دور العاصمة في السلم والحرب.

كما ظهرت في كتابات "أفلاطون" و "أرسطو" و" جان جاك روسو" و "بودان" إشارات وملاحظات حول الدولة ولكن لا يوجد واحد منهم تناول الموضوع كفرع قائم بذاته.

وكان الألمان أكثر العلماء اهتماماً بالجغرافيا السياسية، وقد تطور هذا العلم على أيديهم تطوراً كبيراً، حتى اصبح أداة من أدوات الحكم في الدولة، فقد كانت ألمانيا في مطلع القرن العشرين تعاني ضيقاً في أرضها وتضحماً في سكنها وكانت في الوقت ذاته محاطة بجيران أقوياء لا يفصل بينهم أيه حدود قوية، كما أن عدداً كبيراً من أبنائها كان يعيش خارج حدودها، ومن أجل هذا اتجه التفكير السياسي في ألمانيا إلى العناية لكل ما يساعد الدولة على أن تقوى وتنهض وحددت أهدافها على هذا الأساس، وأخذت تعمل جاهدة على تحقيقها وكان سبيلها إلى ذلك أمران:

الأمر الأول: هو توسيع الدولة حتى تضم العناصر الألمانية جميعاً

الأمر الثاني: هو تقوية الدولة حتى تصبح قوة عظمى

ومع مرور الوقت زاد اهتمام ألمانيا بالقوة إلى أن أصبح التفكير في القوة العسكرية الألمانية مرضاً يصيب الألمان جميعاً. وربما كان للألمان عذر في ذلك، لأنهم بعد هزيمتهم في الحرب العالمية الأولى (1914م – 1918م) حاولوا أن يبحثوا في أسباب هزيمتهم في تلك الحرب، فقادهم البحث إلى التعمق في الدراسات الجغرافية السياسية

ويعد فردريك راتزال Firedrich Ratizel العالم الألماني (1844م – 1904م) أبو الجغرافيا السياسية والمؤسس الحقيقي لها وقد ترك بصمة كبيرة في مجال الجغرافيا السياسية في هذه المرحلة التاريخية المبكرة ، حيث ركز على العلاقة بين السياسة والبيئة الطبيعة وخاصة الأرض والمناخ.

وكان راتزال من أنصار المدرسة الحتمية الجغرافية فضلاً عن تأثره بكتابات دارون التي تري أن البقاء للأصلح، وقد رأي أن الدولة هي كائن عضوي حي وان نجاحها يتوقف لدرجة كبيرة على مقدرتها لإكتساب الأرض وعلى أنها تعبيراً للرابطة بين الإنسان والأرض ، كما كان يري أن الدولة مثلها مثل الكائنات الحية تخضع لقوانين الانتخاب الطبيعي ولا يبقي منها في النهاية إلا الأصلح للبقاء. وقد لاقت أرائه قبولاً في أماكن كثيرة في العالم حيث كانت غير خاضعة للجدل، كما أن محاولتة لوضع معلومات الجغرافيا السياسية المعاصرة في نظام قد ظهرت في عام 1897م.

وكان كتاب راتزال في الجغرافيا السياسية Politische Geographie

وفيه أوضح أن العوامل الجغرافية تتحكم في نمو الدولة وتكوينها ، وأن حدود الدولة قابلة للنمو والزحزحة حتى تبلغ حدودها الطبيعية ، وتتعداها إن لم تجد مقاومة من الجيران، وبذلك كان نمو مفهوم المجال الحيوي Lebensraum من صنع راتزال أيضاً وتعتبر أراء راتزال همزة وصل ونقطة بداية كلل من الجغرافيا السياسية والجيوبولتيك Geopolitcs ، رغم أن العلمين لم يتعايشا معاً في توافق وتواؤم بعد وفاته.أما ما بعد راتزال فقد أخذت الجغرافيا السياسية تتقدم بخطي وئيدة متعثرة بالرغم من أن أعمالا ذات قيمة قد صدرت في فترات مختلفة خلال النصف الأول من القرن العشرين، ولكنها لم تقدم إضافة تذكر للأسس التي وضعها راتزال من قبل. وكان على رأس من ساهموا في تلك الأعمال" أسحاق بومان Isaah Bowman" في كتابه "العالم الجديد" The New world و " ديرونت وتيلسي Derwent whittlesey في كتابه " الأرض والدولة" The Earth and state. وكان بومان كأخصائي إقليمي أمريكي في مؤتمر فرساي للسلام ، وثيق الصلة بالسياسة والجغرافيا معاً وساهم في تسوية مشكلات ما بعد الحرب العالمية الأولي (1914م – 1918م)، فقدم تصوراً رسمياً حيادياً لعالم جديد بدأ يظهر من بين ركام تلك الحرب

بينما ركز كتاب وتيلسي على معلومات منهجية وعلى العلاقة الدولية التي ترتكز على المستوي المحلي.
وقد أدخل العالم السويدي رودلف كيلين Rudolf Kiellen (1864م – 1922م) بعض التعديل على الفكرة التي تقول بأن الدولة كائن حي ، حيث رأي كيلين أن الدولة ليست كائناً حياً وحسب بل هي أيضاً كائن ذو شعور مزدود بقدرات فكرية وأخلاقية عظيمة، وتمثل الأرض التي يعيش عليها هذا الكائن بالجسد وتكون العاصمة القلب والرئتين وتمثل الطرق والأنهار الأوردة الشرايين ، ومناطق التعدين والإنتاج الزراعي هي بمثابة الأطراف. وهو بهذا يكون قد خطا خطوة في التفكير جعلته يتفوق على راتزال، وإن كان يتفق معه في أن الهدف النهائي الذي تسعي الدولة لتحقيقه هو أن تكون دولة قوية يهابها الجميع ويضعونها في الحسبان.
ويعد رودلف كيلين أول من استخدم مصطلح الجيوبوليتيكا Geopolitik والتي عرفها بأنها البيئة الطبيعية للدولة، وإن أهم ما تعني به الدولة هو القوة. كما أن حياة الدولة تعتمد على التربية والثقافية والاقتصاد والحكم وقوة السلطان، وقد رأي أن الجغرافيا ينبغي أن تسخر لخدمة الدولة وذلك هو الغرض الأسمي للدراسة وبذلك تتحول الجغرافيا في مجملها إلى جيوبوليتيكا.
وإذا كان كيلين قد حظي بفضل السبق في استخدام مفهوم الجيوبوليتيكا التي عرفها بأنها البيئة الطبيعة للدولة فإن هذا المفهوم قد تطور بعد ذلك خاصة عند الألمان بعد الحرب العالمية الأولى حيث ساد مبدأ الدولة كائن حي، ويعد كارل هاوسهوفر K. Houshofer (1869 – 1946م) مؤسس الجيوبوليتيسك الألمانية، وقد بدأ حياته ضابطاً في الجيش الألماني وذهب إلى اليابان في سنة 1908م ودرس الكثير عن الشرق الأقصى والمحيط الهادي، ثم تولى تدريس الجغرافيا السياسية والعلوم العسكرية في ألمانيا بعد حصوله على الدكتوراه سنة 1911م، وقد أسهم في سنة 1924 في تأسيس معهد ميونيح للجيولوليتيكا وحملة السياسة، وقد تبوأ مكانة كبيرة هو معاصروه في المعهد المذكور في عهد هكر في الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية الألمانية.
وقد ساهمت أفكار هاوسهوفر في مزيد من دراسة عوامل قوة الدولة وارتباط ذلك بالموقع الجغرافي، خصوصاً وأن هذا العالم الألماني أتصل بقيادة الحركة النازية منذ سنة 1923م وأنشغل بمستقبل الرايخ الألماني ودوره في العالم.
وبذلك فقد طوع الجغرافيون الألمان علم الجيوبوليتيكا لخدمة الحزب النازي الألماني تحت زعامة " هتلو" والتخطيط لاستراتيجية الحرب التوسعية لتهيئة الرأي العام للإعداد للحرب. ولهذا فقد أثارت الجيوبوليتيكا النازية رد فعل عميق من الأشمئزاز العالمي، بل وفي داخل ألمانيا نفسها. فقد إلتزم بعض الجغرافيين الألمان جانب الحياد ولم يستجيبوا إلى هذه السياسة العدوانية ومن بينهم "رونكاجلي" Roncagli الذي عبر عن ذلك بقوله "إن الجغرافيين الألمان قد حاولوا أن يجعلوا من الجغرافيا أداه طيعة تستخدمها الحكومة الألمانية في تنفيذ خططها للسيطرة على العالم.
وفي عام 1932م كتب الجغرافي الفرنسي "ديمانجون" Demangeon " نستطيع أن نقرر أن الجيوبوليتيكا الألمانية قد نبذت عن عمد الروح العلمية كلية، فمنذ راتزال لم تحقق أي تقدم وإنما تحولت إلى ساحة للجدل العقيم والأحقاد الوطنية.

ويذكر بومان "ليس هناك علم حقيقي لكي يخرجنا من النفق المظلم لهذه المشكلة الدولية – إن الجيوبوليتيكا، بالصورة التي ظهرت بها في السياسة والمنشورات الألمانية ليست إلا وهما ومهزلة ومبرراً للسرقة والاغتصاب" ثم ظهر هالفورد وماكندر **H. Mackinder** وكان يعمل استاذا للجغرافيا في جامعة لندن وهو أحد مؤسسي المدرسة الإنجليزية في الجغرافيا وكان ينظر إلى المشاكل الاقتصادية والسياسية على نطاق عالمي حيث خرج على العالم بنظريته المعروفة بنظرية "قلب العالم" Heartland حيث فسر حركة التاريخ في ضوء الصراع بين قوى البر والبحر وإذا كانت أفكار بعض الأوربيين حيال الجغرافيا السياسية مرتبطة بشكل أو بآخر بالتوسع الاستعماري وسياسة القوة فأن ذلك لا يلغي حقيقة التأثيرات الجغرافية في حياة الدول وسياستها، وهي مسألة جديرة بالاهتمام والدراسة. ومن الملاحظ أن الدور الأمريكي في هذا المجال انطلق في أواخر القرن التاسع عشر مع ارتفاع درجة التأثير السياسي للولايات المتحدة الأمريكية في مسار السياسة الدولية، ويعد مدير الكلية الحربية البحرية في "نيوبورت" New Port ألفرد ماهان Mahan, –A (1840م – 1914م) من أهم أساتذة الجيوبوليتيك في الولايات المتحدة الأمريكية وهو الذي كتب عن القوة البحرية وعلاقة ذلك بالسيادة العالمية، أو السيطرة العالمية، واعتبر أن الموقع الجغرافي البحري الولايات المتحدة هو موقع متميز · ويأتي في طليعة العلماء الأمريكيين المحدثين نيكولاس سبيكمان Nspkman مدير معهد "ييل" yale، وهو الذي درس العلاقات بين موقع الدول وسياساتها الخارجية، ووجد أن المنطقة السياسية تتحدد بالعوامل الجغرافية، وأن القوة هو الوسيلة التي تستعملها الدول الكبرى لإرساء السلمالدولي.

كما أشار فيفلد وبرسي في كتابهما الجيوبوليتيكا أن الجيوبوليتيكا تهتم بما يأتي:

أ – هي النظرية التي تبحث في قوة الدولة بالنسبة للأرض.

ب– يبحث في المنظمات السياسية للمجال الأرضي.

ج– هي فن العمل السياسي للدولة للحصول على مجالها الحيوي.

ويجمل أمين عبد الله مظاهر الاختلاف بين الجغرافيا السياسية والجيوبوليتيكا في النقاط التالية:

١ – إن الجيوبوليتيكا تدرس خطة لما يجب أن تكون عليه الدولة، بينما الجغرافيا السياسية تدرس كيان الدولة كما هو في الواقع.

٢ – إن الجيوبوليتيكا ترسم حالة الدولة في المستقبل، بينما تقتصر الجغرافيا السياسية على رسم صورة الدولة في الماضي والحاضر.

٣ – إن الجيوبوليتيكا متطورة متحركة Dynamic ، بينما الجغرافيا السياسية أميل إلى أن تكون ثابتة.

٤ – أن الجيوبوليتيكا تجعل الجغرافيا في خدمة الدولة، بينما الجغرافيا السياسية مرآة للدولة تعكس صورتها الحقيقية.

٥ – أن الجيوبوليتيكا تدرس العلاقة بين الأرض والدول،كما تدرس السياسة العالمية من وجهة نظر قومية محلية ومغرضة، بينما الجغرافيا السياسية علم حكيم وحذر وتقوم دراسته على أساس موضوعي.

٦ – أن الجيوبوليتيكا تعتنق فلسفه القوة وترسم الخطط الإستراتيجية التي تحقق سياسة السيطرة، بينما الجغرافيا السياسية تدرس مقومات القوة متجردة غير متأثرة بدوافع معينة.

٧ – الجيوبوليتيكا لا تعترف بحدود ثابتة، بينما تعترف الجغرافيا السياسية بالحدود القائمة للدول.